٤ - د. ﻫ. لورنس

عبقرى ولكن..

د. طه محمود طه

يمثل ديفيد هربرت لورنس فى القصة الانجليزية الحديثة أخطر ثورة يمكن لكاتب ان يقوم بها فى قصصه ضد العقل والمنطق والتقاليد وهذه الثورة فى أسلوب قصصه وموضوعها تعادل فى أهميتها الثورة على طريقة العرض التى قامت بهـا فيرجينيا وولف ودوروثى ويتشاردسون وجيمس جويس فى القصة واليوت وازرا باوند فى الشعر . ويعتبر لورنس ، رائد الثورة على المعقـل ، من عباقرة القصة فى القرن العشرين وسيظل اسمه خالدا وسيستمر الجدل والنقاش حول شخصيته وقصصه . فقد تعرض لمدح شديد ونقد لاذع لاسباب قد لا تتعلق فى بعض الاحيان بانتاجه الادبى بل لانه اصبح المتكلم بلسان الذين ثاروا على حضارة القرن العشرين الميكانيكية . وربما نجد فيما كتبه فى المستقبل ، كما وجدنا فى قصـائد بليك وجيرارد مانلى هوبكنز ، تسجيلا للقوى الخفية التى تشكل وتسيطر على لسان القرن العشرين . وربما كان لورنس أول من نادى بتركيب فلسفى عملى يمكن الجسـد والروح ، والرجل والمرأة ، من العيش فى توافق وانسجام ؛ وربما ننظر اليه على انه يمثل الرومانتيكية الجديدة فى الأدب فى احتكاكها واتصـالها بالأرض والطبيعة وآخر من يغنى بملذات الحياة الحسية التى تعمل على اضعافها حياة المدن والآلة .

وقد كانت فلسـفة شوبنهور ونيتشه رائجة فى عصره ولها قطعا اثرها فى تفكيره فقد شجع هؤلاء المفكرون الديناميون ايمانه بالحيوية والفردية . وربمـا كان لزوجتـه الالمانية اثرها فى ايمانه بميتافيزيقا « أوتو وينجر » الذى كان كتابه « الجنس والشخصية » مرجعا فى العشر سنوات الاولى من القرن العشرين ، فتحليله للعلاقات البيولوجية والنفسية والميتافيزيقية بين الجنسين كان له أثر فعال فى فلسفة لورنس الحيوية . وأهم من العوامل الفكرية والفلسفية التى تساعدنا فى تفهم وتقييم أعماله فهناك العوامل الشخصية ؛ فقد كان للبيئة التى نشأ فيها لورنس اثرها فى حثه على التعبير عن رؤاه وتجاربه بطريقة غريبة عنيفة .

لقد عاش لورنس معظم حياته يتصارع مع الأفكار والعواطف التى تسلطت عليه والتى كانت تهزه هزات عنيفة دائما فلم تترك له وقتا كافيا لكى يتمكن من عرضـها عرضا فنيا منظما فى قصصه . وفى احدى رسـائله يقول انه كان غالبـا ما يبدأ فى كتابة قصة جديدة قبل أن ينتهى من الأولى ، وحتى عندما كان يكتب قصة جديدة كان لا يدرى عن خاتمتها شيئا . فقد كانت حيويته وعبقريته أكثر من عبقرية فورستر أو الدوس هكسلى ، وفاق احساسه بالحياة والعواطف معظم معاصريه ووجد لها متنفسا فى الشعر أيضا .

لقد كان لورنس كاتبـا دائما فقصصه القصيرة وحدها تملأ عدة مجلدات وله كتب رحلات وثلاث مسرحيات كما كتب فى علم النفس . وقد يكون لورنس قد بعثر قواه فى كل اتجاه كما يقول هكسلى عنه ولم يستطع أن يضفى على قصصه نظاما فنيـا ويقدمها لنا فى شكل مصقول ، فقد استمر الصراع بين لورنس الفنان ولورنس الانسـان حتى وفاته . وقد دفعـه هـذا الصراع وهذه الزوابع والعواطف

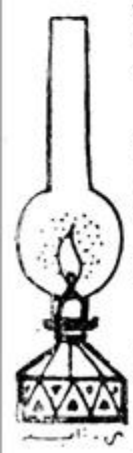

التى كانت تهز كيانه الى السفر والسعى المتواصل وخاصة بعد عام ١٩١٩ ـ فقد حاول أن يغادر انجلترا دون نجاح أثناء الحرب العالمية الأولى ـ الى صقلية واستراليا والمكسيك ـ وقد اكتسب لورنس الكثير من التجارب أثناء رحلاته هذه وامتص رحيق حضارات مختلفة ولكنه لم ينجح فى الوصول الى ما كان يصبو اليه حتى وهو على فراش الموت فى عام ١٩٣٠ .

فلسفة لورنس :

كتب لورنس فى احدى رسائله يقول : « ان الاختلاف بين الناس ليس اختلافا طبقيا ، ولكنه اختلاف فى النفوس . فمن الطبقة المتوسطة يحصل الانسان على الأفكار فقط ، ومن الناس العاديين ، على الحياة ذاتها ، على الدفء » والغاية من الحياة ذاتها عند لورنس هى وصول كل فرد الى الاكتمال . والوجود هو الغرض الأساسى فى الحياة وليست المعرفة . والبحث فى قصصه من « الطاووس الأبيض » حتى « الرجل الذى مات » هو بحث عن تعريف لطبيعة الانسان ثم حثه على الازدهار والنمو والكمال . وهذا هو الهدف الذى كان دائما يسعى اليه ، وكل ما عدا ذلك كان غير ذى بال ـ البيئة والطبيعة والأشياء والممتلكات . فكلها لا تعنى شيئا بالنسبة للفرد ولكنها تساعد الانسان فقط على الاكتمال ومعرفة النفس . واذا أراد الفرد أن يكتمل فلابد له بطريقة أو أخرى أن يتعلم التعاطف والاتصال بآخرين . فاللاشعور عند الفرد ، كما كتب لورنس فى هجومه على فرويد فى كتابه « التحليل النفسى واللاشعور » ، يتطلب عالما خارجيا لكى يتمكن الفرد من تنمية ذاته ؛ وبالتالى فعلينا أن نتخلى عن فكرة تجريد الذات ، ويجب أن يكون للذات مجال مادى تتحرك فيه ولابد أن يكون هناك فرد آخر لكى تتحقق هذه العلاقة . ولهذا أطلق هكسلى على فلسفة لورنس هذه : « المادية الصوفية » ويطلق عليها لورنس « الاستقطاب » ، فالفرد ينمو ويكتمل عن طريق عملية مد وجذر استقطابية ، عن طريق الحركة المستمرة المتغيرة بين الفرد وفرد آخر ، وهى عملية تجاذب وتنافر مستمرة بين قطب سالب وقطب موجب . وفى محاولتنا للوصول الى هذا التعادل نجد أن العقل أصبح معطلا ، فهو لا يتأثر ولا يؤثر ، ونجد أنفسنا فى طريق مسدود لأن الوعى لا يعتبر هدفا ، فهو وسيلة تساعدنا على الاحتكاك بالعالم الخارجى فقط أو وسيلة للوصول الى ما يطلق عليه لورنس « الاكتمال التلقائى الخلاق للفرد » . والعقل فى فلسفة لورنس ليس مرشدا او هاديا ولهذا يجب علينا أن نكون على علم بالطرق العديدة التى يعبر بها لورنس عن قصور العقل ـ الشجرة فى قصته « أبناء وعشاق » ، والكاتدرائية والخيول الجامحة فى « قوس قزح » والثلج الأبيض الناصع والتماثيل الافريقية الخشبية والمهرة فى « نساء عاشقات » والديك الذى يحاول التحرر والانطلاق والهروب فى قصته القصيرة « الرجل الذى مات » . وهذه الظواهر تعيش حياتها ويضعها لورنس فى قصصه ويبرز علاقتها بشخص من شخوص القصة ثم بعد ذلك يقارنها بالقصة كلها . وعندما يتم له هذا نشعر بوجود عالم آخر أعمق وأقوى من أى عالم يستطيع العقل أن يصوره أو يدركه ونتلقى هذه الايحاءات كلما ظهر هذا الرمز فى القصة . وتلعب هذه الرموز دورا قويا ديناميا غامضا تتسلل بواعثه من العقل الباطن واللاشعور ، من تلك الطبقات العميقة والعوالم الخفية التى يعتقد لورنس انها المكان الوحيد الحقيقى الذى يعيش فيه الانسان والتى يجب الوصول اليها اذا كان لهذا الاستقطاب أن يحدث بين فرد وآخر . ويقيس لورنس اكتمال الفرد بقدرته على الاندماج باللاشعور الأولى مع فرد آخر وبهذا تكتمل « رجولته » ويتحقق وجوده . فالحب الحقيقى عنده ينتج عن استقطاب يدخل فيه الفرد فى حالة مد وجذر مع فرد آخر ويصبح التلاق بعده على كل مستويات الحياة .

ومن الواضح أن لورنس لم يكن يتكلم عن فلسفة جديدة ، فقد كان فورستر ينادى من قبله بفلسفة مماثلة لا دخل للعقل الواعى فيها كمحرك لطاقة حيوية وحضارية هائلة وشخوص فورستر النسائية المرهفة الحس دليل على ذلك . فلدينا مثلا مسز ويلكوكس فى « هواردز اند » ومسز مور فى « رحلة الى الهند » . ولكن لورنس يفوق فورستر وغيره ممن ينادون بهذا التعاطف والاخاء

فى التنوع والعمق . وفى القوة التى يعالج بها شخصياته ومواقفه وفى قدرته على اثارة تلك القوى الغامضة فى جوهر الاشياء وبسط قضيته بطريقة سحرية شاعرية وخلق جو مناسب لها . ومن هذه المواقف ذلك المنظر الذى ترقص فيه « أنا » عارية وهى فرحة بالحياة التى فى أحشائها ، والخيول التى تهاجم « بورسولا » فى « قوس قزح » ؛ والمنظر الذى ترقص فيه جودرون أمام الأبقار ، وعندما يحاول « بيركين » أن يبعثر قرص القمر الفضى المنكس على صفحة مياه البحيرة الهادئة بينما تراقبه بورسولا فى « نساء عاشقات » .

وعندما فرغ لورنس من كتابة قصصه الأولى كان اهتمامه بالعالم الخارجى قد فتر وبدأ يوجه اهتمامه الى جوهره ، كان يحاول ، كما تقول كاثرين كارزويل أن يصل الى ما دون نهر الحياة ذاته . ولهذا قل اهتمامه فى قصصه بحياة شخوصه فى العالم المادى من حولهم وأخذ يستكشف ما يدور داخل عوالمهم العاطفية والروحية وعندما ضعفت قبضته على شخوصه أخذ يتصارع معهم وخاصة من كان منهم يرفض الامتثال لعواطفه ويلقى بنفسه فى دوامة الحياة المادية من حوله أمثال جيرالد فى « نساء عاشقات » وسكربنسكى فى « قوس قزح » . ومن هنا ينشأ التشابه الكبير فى قصصه بين شخصياته فلا فوارق واضحة بين شخصية وأخرى ومعظمها تشبه لورنس الى حد ما .

وقد دفعت عبقرية لورنس وقدرته على التعبير عن حالات نفسية جديدة الكثيرين الى اعتباره عبقريا فذا ؛ وربما ذهبوا ، فى تقييم أعماله الى أبعد من ذلك ، فهم يضعونه فى قمة القصاصين الانجليز أو على رأسهم جميعا . ولكن هذا الاعتقاد كما يقول « داڤيد ديتشيس » مبنى على التغاضى عن نقط الضعف فى قصصه وقصور نظرته أحيانا . فلقد طور لورنس استعمال القصة وجعلها أداة لا لوصف مجتمعه وصفا واقعيا واجتماعيا بل لوصف حالات شعورية نفسية وأصبحت القصة سجلا لتلك الرؤا القوية الأصيلة للحياة وعرضا رمزيا شاعريا للحقائق الكامنة فى جوهر الفرد وفى العلاقات الشخصية . ولكننا نجد الى جانب هذه النبضات القوية وهذه الهبة الرائعة لوصف التجارب الخاصة والتفسير الرمزى قتامة مربكة وتكرارا مملا محموما لرموز معينة تتسلط على لورنس من آن لآخر دون أن يكون لها اتصال عضوى بالقصة ذاتها . فماذا مثلا يعنى لورنس بالفصل الخامس عشر فى قصته « قوس قزح » ذلك الفصل الذى يطلق عليه « مرارة النشوة » ؟ ففى هذا الفصل تمر بورسولا وسكربنسكى بأزمة عاطفية تنتهى بعدها العلاقة التى بينهما . وتحاول بورسولا أن تهب نفسها لسكربنسكى وتنظر الى القمر باشعته الفضية وتقبل على مغازلة سكربنسكى فى عنف ولكنها تسيطر على عواطفها وتنساب دمعة من عينيها وهى تنظر الى القمر ، ويتراجع سكربنسكى فى خوف : فلقد أصبحا « اثنين من الأموات » . وعندما يقابلها فيما بعد يسألها : « لماذا تخليت عنى ؟ » فترد عليه : « لقد تخليت أنت عنى ـ لقد تركنا بعضنا » . والقارىء الذى يتتبع حوادث القصة بصبر ومتعة سيصاب حتما بخيبة أمل عندما يصل الى هذا الفصل . ونقابل نفس الأزمة فى قصته « نساء عاشقات » عندما تصل الى الفصل الأخير وبعد موت صديق بيركين نقرأ الحوار التالى بين بورسولا وبيركين :

ـ « هل كنت فى حاجة الى جيرالد ؟ سألته ذات ليلة .

ـ نعم ، قال .

ـ ألا تجد فى ما يكفيك ؟ سألته .

ـ كلا ، قال : تكفينى فيما يتعلق بالمرأة . فأنت كل النساء بالنسبة لى . ولكنى كنت أود رجلا صديقا ، دائما ، كما أصبحت العلاقة بينى وبينك .

ـ ولماذا لا تجد فى الكفاية ؟ سألته . انى أجد فيك الكفاية .

ولا أريد أحدا سواك . ولماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لك ؟ .

ـ اذا كنت لى كان فى استطاعتى أن أعيش حياتى كلها دون حاجة الى انسان آخر ، الى أى صداقة

خالصـــة . ولـكن لكى تكون الحيـاة كاملة ، حياة سعيدة حقا ، فانى كنت أريد ارتباطا دائمـا مع رجـل ايضـــا : نوعا آخر من الحب .

ـ انى لا أصدق هذا ، قالت . ان هـــذا عناد ، نظرية ، انحراف .

ـ حسنا ..

ـ لا تستطيع أن تحصل على نوعين من الحب . الا بد من هذا ! .

ـ يبدو ان هذا غير ممكن ، قال . ومع ذلك أود لو كان من الممكن .

ـ لا يمكنك هذا ، لانه سيكون باطلا ، مستحيلا ، قالت .

ـ أنا لا أومن بهذا ، أجابها . »

ونحن لا نستطيع أن نغتفر له هذه الأخطاء لانها تقفز الى عقلنا عند الحكم على أعماله وتقييمها . وكتاب « ريتشارد الدنجتون » عنه يعرض علينا الرأى السائد فى أعمال لورنس ، وعنوان الكتاب « صورة عبقرى ولكن ... » ويقول المؤلف فى مقدمته : انى أطلق على هذا الكتاب « صورة عبقرى ولكن ... » لسببين : الأول وهو لأن الكتاب صورة وليس سيرة مفصلة كاملة كان من الممكن أن تصبح أطول من هذا مرة او مرتين لو وجدت المادة ، والسبب الثانى هو أننى لاحظت عند فحص الكتب والخطابات التى كتبت من لورنس انه فى مكان منها أو آخر استعمل كل ناقد تقريبا التعبير التالى : « كان لورنس بالطبع رجلا عبقريا ، ولـكن ... » وكان اهتمامهم بكلمة « ولـكن » أكبر من اهتمامهم بكلمة « عبقرى » . وقد التصقت كلمة « عبقرى » بلورنس دائما وذكرها أول ناقد لأعماله وهو « فورد مادوكس هوفر » وآخر المجلات الأدبية التى كانت تكتب عنه عند وفاته عندما أطلقت عليه « العبقرى المغرق فى الجنس » . واذا كانت العبقرية تعنى مجرد تمتع الفرد بحيوية خلاقة فلا جدال فى أن لورنس كان يتمتع بحيوية دافقة خلاقة كما تشهد بذلك المقدمة التى كتبها الدوس هكسلى لرسائل لورنس والتى يقول فيها : لقد كانت هبـــة لورنس الخاصة هى حساسيته الفائقة لما يطلق عليه الشاعر وردزورث « الحالات الغامضة فى الوجود » .

فقد كان دائما يشعر بوجود سر غامض فى الكون ، وكان هذا السر دائمـــا سرا الهيا .. وهذه الحساسية الفائقة كان يصاحبها مقدرة عظيمة او قوة خـــارقة فى التعبير الأدبى عن هذه الحالات المباشرة من التجارب . لقد كان لورنس ينظـــر الى الكون بما فيه بعينى انسان كان على وشك الموت ثم بعث من جديد واخذ ينظر الى الكون من حوله بنوع من التأمل والبهجة والسرور . وكانت الحياة كلها بالنسبة له فترة نقاهة مستمرة ، وفى كل يوم من حياته كان يشعر وكانه قد شـفى من مرض عضال . وكان قلمه وحديثه يعكسان ما كان يراه بعينيه ، فقد كان مثلا يستطيع ، عن طريق التجربة الذاتية الخاصة ، أن يصف لنا احساس الانســـان اذا ما أصبح شجرة أو تحول الى زنبقة او موجة أو قمر ، كان فى استطاعته أن يدخل تحت جلد حيوان ما ويشرح لنا ما يحس به الحيوان فى تفاصيل مقنعة » . ويقـول هكسلى ، وقد كان صديقا للورنس ، ان لورنس كان لا يهتم كمعظم الناس والأدباء بالشكل بل بالجوهر ، لم يكن مثلا يهتم بالفحم أو بالماس بل بانكربون ذاته الذى يدخل فى تركيب كليهما . وكان تحليله لهذه التجارب الذاتية لا يتم عن طريق العلم أو العقل ، بل كان يتم عن طريق عملية حدس مباشرة ، فقد كان مثلا فى استطاعته أن « يشـــعر » و « يحس » بوجود الكربون فى الفحم والماس وأن « يذوق » الأيدروجين والاكسجين فى الماء الذى يشربه .

وقد استمر انتاج لورنس الأدبى الخلاب عشرين عاما بالرغم من مرضه ، وكان يجيد ، كما يقول هكسلى ، فن الاسترخاء والاستجمام ، ولكن هذه الفترات لم تكن فترات كسل أو خمول . واذا أطلقنا

على لورنس لقب « عبقرى » ، فاننا نعنى بهذا ذلك الشخص الذى يولد وله احساس فائق بالحياة ، او ادراك حسى فريد فى نوعه واستعداد فطرى لنوع معين من التفوق الانسانى . وربما نسأل الآن : لماذا تطلق على لورنس لقب « عبقرى » ؟ ونعتقد ان السبب الرئيسى الذى يستحق من أجله لورنس الدراسة والتمجيد هو انه قد نجح فى توسيع وتعميق دائرة وعينا . وفى هذه الحالة يصبح من الصعب علينا أن نتكلم عن التكنيك فى قصصه أو عن طريقته فى عرض مادته ، أو عن أسلوبه أو حتى بعد نظره ، لاننا حين نقرأ قصصه نشعر أننا نتعلم شيئا عن هذه « الحالات الغامضة فى الوجود » لأول مرة ، شيئا لا مثيل له فى القصص الانجليزى من قبل . وحينئذ سنتعرف بعبقريته ولكننا نستطيع أيضا ، كما فعل ت . س . اليوت فى عام ١٩٢٤ ، أن نتهمه بالالحاد ونطبق على قصصه وفلسفته قوانين خلقية معينة ، ولكننا ، كاليوت أيضا (١٩٥٠) قد نغير رأينا فيما بعد . فقصص لورنس ، كمعظم القصص الاخرى ، تعليق على تجارب انسانية معينة ، ولكنها تختلف عن القصص الاخرى فى انها كشف جديد متعمد وبحث عن قيم جديدة . وربما وجدنا فى قصصه تكرارا مملا وتعقيدا فى التفاصيل وتناقضا ونوعا من الهيستيريا وعلما زائفا ولكننا نجد فيها قوة وذكاء واخلاصا وتعمقا فى النفس البشرية قلما حققه كاتب من قبله . وقد كان لورنس يعتز دائما بمهنته كقصصى ويفخر بها :

« اننى ارفض كلية أن أعتبر نفسى روحا او جسدا او عقلا او ذكاء او مخا أو جهازا عصبيا او مجموعة من الغدد أو جزء من باقى تلك الاجزاء التى تكونني . فالكل أعظم من الجزء . ولذلك فانا ، الانسان الحى ، أعظم من روحى ومن نفسى ومن جسدى ومن عقلى ومن وعى ومن أى شىء آخر يكون جزءا منى . انى انسان وحى ، انى انسان حى ، وأنوى بقدر ما أستطيع ان اظل انسانا حيا . وأنا قصصى لهذا السبب . وأعتبر نفسى ، لانى قصصى ، افضل من القديس أو العالم أو الفيلسوف أو الشاعر ، فهم أساتذة متخصصون فى أجزاء مختلفة من الانسان الحى ، ولكنهم لا يصلون الى الكل أبدا . »

حياته وفنه القصصى :

ولد لورنس فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٥ فى ايست وود على بعد ثمانية أميال من نوتنجهام وكان الطفل الرابع لاحد عمال المناجم . وكان الفحم يستخرج من باطن الارض فى هذا المكان منذ قرون ، ولكن طريقة استخراجه كانت بدائية حتى عام ١٨٤٠ أى قبل مولد لورنس بحوالى اربعين عاما وكان عمال المناجم يسكنون أكواخا من القش والغاب ويعملون فى جوانب التلال والجبال وكانت الحمير تجر الفحم الذى يخرج من باطن الارض وتنقله الى المخازن . ويصف لورنس هذه الفترة فى قصته « أبناء وعشاق » . وبعد عام ١٨٥٠ بدأ المنظر يتغير وادخلت رسائل حديثة عندما وصل اصحاب رؤوس الأموال ولمتدت السكك الحديدية وأخذت مناجم الفحم تظهر وسط الحقول الخضراء والمراعى والغابات . واختفت الاكواخ المسقفة بالقش والبوص وحلت محلها صفوف من المساكن المريحة قام ببنائها أصحاب شركات استخراج الفحم . وأخذت الطرق وخطوط السكك الحديدية تخترق الارض الزراعية الخضراء والوديان والغابات . وكانت الارض ما زالت أرضا ريفية جميلة فى شرقها غابة شيروود تظللها أشجار البلوط وفى الشمال الشرقى منها جبال دابى شاير . وكانت المناجم فى بادىء الأمر شيئا جديدا وقليلة العدد وسط المناظر الطبيعية الخلابة . وظلت ايست وود نفسها تحتفظ بطابعها الريفى الجميل ولم تتحول كلية الى مدينة صناعية وكانت تتمتع بموقع ممتاز فوق ربوة عالية ومعظم منازلها كانت تطل على الأرض الفسيحة المترامية الأطراف . وقد ظل أهل ايست وود بعيدين عن المجتمع الصناعى فى شفيلد أو لندن أو ليفربول ولا يشبهون سكان الأحياء الفقراء فى أنحاء انجلترا ، كانوا يسيرون وسط الحقول ليصلوا الى المناجم ، وفى أثناء ذهابهم للعمل أو عودتهم قد يتوقفون ليجمعوا شيئا من عش الغراب أو يقتنصوا أرنبا بريا للعشاء مثلهم فى ذلك مثل الفلاحين العاديين . وبالاضافة الى ارتباطهم بالأرض وعملهم فى المناجم كانوا صناعا مهرة يفخرون بما تصنعه أيديهم ، ولم تهددهم البطالة

الا فى النادر . وكان فى استطاعة جون آرثر لورنس ، والد د . هـ . لورنس ، أن يحصل على أجر أسبوعى قدره خمس جنيهات (ومن سخريات القدر أن لورنس نفسه وبعد عشرين عاما كان يحصل على أقل من جنيهين فى الاسبوع من مدرسة فى لندن بالرغم من أنه كان مدرسا مؤهلا ، وكان هذا يعتبر مرتبا كبيرا) .

ولم يكن عمال المناجم ، كما يقول لورنس ، يهتمون كثيرا بأجورهم ، فقد كانوا يعيشون عيشة غريزية فطرية تنمى فيهم روح الصداقة والاخوة والبساطة وهم يعملون نصف عراة فى باطن الأرض وفى الكهوف المظلمة . وكانوا يواصلون هذه الصداقة والاخوة عندما يخرجون من المناجم ويجتمعون فى المشارب والخانات . لقد كانوا يعيشون فى عالم مظلم أسود قاس معظم وقتهم ، فقد كانوا يتركون منازلهم فى وضح النهار ، بعيدين عن عالم الحقائق والمعاملات المالية والمسئوليات المنزلية . وما كان يهمهم هو توفير أسباب الراحة لافراد أسرهم ، ولكن هذه الحياة الغريبة دفعت الزوجات الى اعتبارهم سكان عالم آخر غريب وفى النهاية أخذن ينظرن اليهم على أنهم دخلاء .

ولم يستطع لورنس أبدا أن يتخلص من ظلام المناجم ولونها الأسود الفاحم وظلت هذه الصورة تتسلط على عقله ووجدانه . فقد كان المنجم بالنسبة اليه رمزا وسرا غامضا يوحى اليه بالغموض الكامن فى اللاشعور الذى يزخر بالرموز الداكنة . وفى قصصه يظهر الظلام والغموض بشكل واضح فى ابرازه لحاسة اللمس وفى محاولته لوصف التجارب الذاتية التى تطفو من « اللاشعور المظلم » ومن مستويات أخرى « مظلمة » ، تلك القوى والدوافع التى تعمل فى خفاء وفيما تحت مستوى الوعى . فقد كان لورنس يحس أن المنجم قد ابتلع والده ، وأن الوالد قد أصبح غريبا ، مخلوقا شاذا يعيش على وجه الأرض لفترات قصيرة ثم يعود فيغوص فى باطنها .

وكان لهذا الصراع بين والد لورنس ووالدته اثره الكبير فى حياته العادية وحياته كفنان . فقد كان والده رجلا أميا بدأ عمله فى المناجم وهو فى سن العاشرة ، وكان يجد صعوبة فى كتابة اسمه او قراءة بضع كلمات فى جريدة يومية . وكان نشاطه جسديا ـ عمله فى المنجم واصلاحه لبعض ادوات منزله والسير لمسافات طويلة على الاقدام مع أصدقائه والتسامر فى المشارب . أما الوالدة فقد كانت تتمتع بقسط أكبر من التعليم ، فقد تعلمت فى مدرسة خاصة ثم أصبحت فيما بعد مدرسة بهذه المدرسة وكانت تقرأ كثيرا وتكتب الشعر وتحب الأفكار والمناقشات الفلسفية والدينية وتفوق زوجها فى الاحساس المرهف والتهذيب الخلقى . وقد أصرت الوالدة منذ البداية على أن يحصل أولادها على قسط أكبر من التعليم ، ولولا طموحها لما قدر للورنس أن يحصل على هذا القسط من التعليم الذى مهد له السبيل لأن يكون كاتبا . ومهما كانت ثورة لورنس فيما بعد على التعليم وحياة الذهن والأفكار المجردة ، فلا أحد يستطيع أن ينكر فائدة التعليم ، ولا أحد يستطيع أن يكون أديبا قصصيا مثل لورنس دون ثقافة ، فلا تستطيع الغريزة وحدها ولا الحياة وحدها أن تنتج أدبا رائعا . ومن ناحية أخرى كان لوالده اثره أيضا ، فلولا حبه للحياة ذاتها بمعطياتها الحسية ودفئها لما قدر للورنس أن يكون لورنس الذى نعرفه ، ولربما كان أثر طموح والدته أن أصبح لورنس رجلا مثقفا عاديا . وكان لورنس يرى الأشياء وهو شاب بعينى والدته ولكنه فى المدى الطويل أخذ يعجب بوالده وبحياته الغريزية الجسدية . وفى قصته الأولى « الطاووس الأبيض » يظهر تعلقه واعجابه بعالم أمه ، وفى قصته الأخيرة « عشيق الليدى تشاترلى » نراه أبعد ما يكون عن هذا العالم .

وبعد أن عمل لورنس فى شركة لانتساج المعدات الجراحية فى توتنجهام دخل مدرسة ايست وود لم التحق بجامعة توتنجهام وتخرج كمدرس فى عام ١٩٠٨ ، وبعد أربع سنوات قضاها فى التدريس ونشر فيها قصصا قصيرة عديدة وعددا من القصائد وقصتى « الطاووس الأبيض » ١٩١١ و « المذنبون » ١٩١٢ ، فر الى ألمانيا ومعه « فريدا » زوجة مدرسه الفرنسى وكانت سيدة ألمانية وأما لثلاث أطفال . وكان لوفاة والدته اثره فى تحرر لورنس من كل الصلات التى تربطه بانجلترا التى تركها ليبدأ رحلاته الطويلة مع « فريدا » ، تلك الرحلات التى استمرت حتى وفاته فى عام ١٩٣٠ . وكان لورنس يعود

الى انجلترا لفترات قصيرة كلما عاوده الحنين الى وطنه اذ كانت رحلاته الى ايطاليا والمانيا واسترالية تستغرق كل وقته . وفى المكسيك الجديدة استقر لفترة وتزوج « فريدا » .

واثناء الحرب العالمية الأولى لم يتطوع لورنس فى الجيش لأن صحته كانت معتلة بسبب مرض السل الذى بدأ يداهمه . وفى عام ١٩١٥ حاول أن يقنع فريقا من الكتاب والمفكرين من بينهم الدوس هكسلى وبرتراند رسل ومارك جيرالد ومايكل آرلين ودوروثى بريت ليقيموا فردوسا أرضيا فى فلوريدا ويكون شعار هذه الجماعة « العنقاء » وتكون مهمتها تجديد العالم كله وبعثه من جديد فى صورة أحسن مما كان عليه . وفشلت الفكرة ولم يتحقق حلم لورنس لأن برتراند رسل ضاق بلورنس وأفكاره ، فقد أطلق لورنس لحيته وبدا فى صورة « مسيح جديد » تملأ عقله أفكار بعيدة الاحتمال عن ولادة الانسان مرة ثانية عن طريق ما كان يطلق عليه « وعى الدم » أو « فلسفة الدم الغرزية » . أما الدوس هكسلى فلم يتأثر كثيرا بأفكار لورنس لأن هكسلى فى ذلك الوقت ، كما يقول ، كان « رجلا حريصا » وكان حديث لورنس دائما يدور حول الأشياء البعيدة والذاتية البحتة . وهذه الفلسفة الطبيعية الغرزية تبلور فيما يقوله لورنس فى كل من « قوس قزح » ١٩١٥ و « نساء عاشقات » ١٩٢٠ . ففى قصته « نساء عاشقات » يتحدث « بيركين » بلسان د . هـ . لورنس ويحلل لنا فلسفة لورنس فى الاستقطاب والتكامل كما تزخر القصة بمواقف درامية وبرموز لها مغزاها .

وقضى لورنس سنوات الحرب العالمية الأولى فى انجلترا شبه سجين فيها فقد كانت السلطات تراقبه وتشك فى نشاطه وكانت الحكومة تعتبره محركا للاضطرابات وجاسوسا ألمانيا . وبعد انتهاء الحرب بدأ لورنس وفريدا سلسلة من الرحلات بنوع من الجنون ـ من ايطاليا الى سقلية ، ثم الى ألمانيا وبعدها الى ايطاليا ثم الى سيلان ومنها الى استراليا والمكسيك ولوس أنجيليس وتيو أورليانز . كان يرغب فى زيارة روسيا ولكن حالت الظروف دون ذلك . وفى عام ١٩٢٣ عاد لورنس الى انجلترا مرة ثانية ولا زالت فكرة فردوسه الأرضى « راناليم » تراوده ، ثم بدأ سلسلة رحلاته مرة ثانية فسافر الى الولايات المتحدة والمكسيك ثم انجلترا ، وبعد ذلك الى ايطاليا وكابرى وفلورنس وبادن ولندن وايطاليا واستراليا وتيو زيلند وسويسرا وفرنسا وبفاريا واخيرا فى مصحة فى « فنس » فى جنوب فرنسا حيث توفى بمرض السل . وكما يقول هكسلى فى مقدمته لرسائل لورنس :

« لقد كان احساس لورنس بالعزلة هو الذى دفعه للتجول حول الأرض ، وكانت رحلاته هروبا وتنقيبا فى آن واحد : كان يبحث عن مجتمع يستطيع أن ينتمى اليه ، عن عالم لا يكون الزمان فيه ذاتيا ولا تكون المعرفة الواعية فيه قد أفسدت الحياة ، تنقيبا وفى الوقت ذاته هروبا من الشقاء والشرور فى المجتمع الذى ولد فيه ، ذلك المجتمع الذى كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم احساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه . ولكن بحثه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته . وفى حالة من اليأس القى بنفسه فى أعماق اللغز المحيط به ، فى الليل الأسود لتلك « الغيبة » التى تعتبر التجربة الجنسية جوهرها ورمزها . ولقد أدى انعزال لورنس النفسى واغترابه الى طلبة العزلة جسديا عن البشرية ، ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل فى أفكاره . »

ولم يستقر لورنس على حال خلال هذه السنوات وكان لتجاربه العديدة خلال رحلاته أثرها فى تعميق نظرته للحياة وتطور طريقته فى الاقناع والعرض فى قصصه . وقد كان كل شىء يراه لورنس أو يسمعه أو يحس به مادة تغذى كتبه محاولا اقناع الانسانية بضرورة المولد الجديد عن طريق احساسها بما كان يطلق عليه « النصف الأدنى من الوعى » ، هذا الجزء الذى لا يستطيع العقل أن يصل اليه . فقد كان لورنس يؤمن بأن مصايب الانسان فى العصر الحديث ترجع الى أنه ينمو ويتطور من خصره الى أعلى بنما يترك ما دون الحزام كما هو أى يعنى بالعقل على حساب الجسد . وكان لورنس يؤمن بأن الانسان

بحالته الراهنة لا يتمتع بكل طاقاته ولا ينمى كل امكانياته ، وانه من الضرورى للانسان لكى يحظى بهذا الميلاد الجديد من أن يموت كالعنقاء ليولد ويبعث من جديد من رماده بعد هذا التطهر . وفى هذا النوع الجديد من الحياة وجد لورنس صورة للرسالة التى شكلت ولونت كل ما كتب تقريبا ، حتى كتبه فى النقد والرحلات مثقلة بهذه الرسالة التى سيطرت عليه حتى وفاته .

ان رحلات لورنس المتواصلة ومحاولاته للاحتكاك بحضارات مختلفة وممارسة الحياة على مستويات عديدة تشير الى بحثه الدائب عن شىء كان يراوغه . فلقد كان لورنس مثاليا مغرقا فى مثاليته ، لذلك لم يرض بما تقدمه له الحياة العادية وكان دائما يطلب الكمال فى كل شىء حتى انه لم يقبل أنصاف الحلول التى قد تؤدى فى المدى الطويل الى مثله العليا . ولهذا ظل يغوص فى العالم الميكروكوزمى الغرزى الى ما دون المستوى الانسانى ، عالم الذرة والالكترون ، عالم الغرائز والالغاز والدوافع الجنسية الخفية . ومضى فى طريق الجسد يحلل بدقة جذور الرغبة الجنسية حتى كاد أن يصل الى نسيج الوجود والحياة . وظل شيطانه يطارده حتى آخر أيام حياته ، وظلت حيويته تتدفق منه بغزارة حتى عندما فقد الأطباء الأمل فى انقاذه .

ان قصص لورنس لا تعتبر ترجمة ذاتية فحسب بل هى وثائق تسجل التفاصيل الطبيعية والبيئية حوله ، ويظهر معظم أصدقائه فى قصصه بشكل أو آخر وأهم ما تتميز به قصصه هو قوة أسلوبه فى الوصف ودقة احساسه . ويجب علينا منذ البداية وقبل أن نستعرض بعض قصصه أن نقول أن لورنس لم يكن رجلا عبقريا ، أو رجلا رائعا ، أو أحيانا رجلا مجنونا ، أو واعظا ، أو مصلحا اجتماعيا فحسب ، بل كان كاتبا عظيما .

أعماله :

كثيرا ما كان للورنس مع السلطات البريطانية مشاكل لا تنحصر حول الرقابة على كتبه ولوحاته . فقد منعت الرقابة « قوس قزح » و « عشيق الليدى تشاترلى » من النشر ، وهاجم رجال اسكتلنديارد معرضا للوحاته فى مدينة لندن وصادروا اللوحات . ولم تثن هذه المشاكل والصعاب لورنس عن عزمه وظل يكتب بعنف واصرار . وبالاضافة الى عدد كبير من القصص القصيرة أهمها « الرجل الذى مات » ، والقصائد والرسائل والمقالات النقدية فله عدد آخر كبير من القصص : الطاووس الأبيض ١٩١١ ــ أبناء وعشاق ١٩١٣ ــ قوس قزح ١٩١٥ . نساء عاشقات ١٩٢٠ ــ الفتاة المفقودة ١٩٢٠ ــ الكنغر ١٩٢٣ عشيق الليدى تشاترلى ١٩٢٨ ــ الديك الهارب ١٩٢٩ وقد نشرت بعد ذلك بعنوان « الرجل الذى مات » . والقارىء الذى يهتم بقصص لورنس لابد أن يقرأ له « التحليل النفسى واللاشعور » ١٩٢١ و « فانتازيا اللاشعور » ١٩٢٢ .

الطاووس الأبيض : The White Peacock

تنتمى هذه القصة البسيطة الى قصص توماس هاردى لجوها الهادىء الرعوى الريفى الجميل وترسم لنا معالم القصة اللورنسية من حيث ابرازها لشخوص لورنس المميزة ، ومواقفه النموذجية ، فنجد فيها الشخصيات التى تسير وراء العقل ، والارستقراطى العاجز ، وحارس غابة الصيد .

وفى القصة يحاول لورنس أن يشكك فى القيم الأخلاقية الفكتورية ويصور لنا جو العصر الكئيب ويفضحه . وعندما انتهى لورنس من كتابة قصته عرض مخطوطها على « هوفر » وكان قد استغرق فى كتابتها أربع سنوات . وقرأ هوفر القصة وقال للورنس : « ان فى هذه القصة كل العيوب التى فى القصة الانجليزية ، ولكنك عبقرى . » ونشرت القصة فى أمريكا وانجلترا وكان سن لورنس **٢٥ عاما** .

وتصور القصة الريف الذى نشأ فيه لورنس ـ الوديان والجبال والغابات والحقول حول ايست وود قبل أن تشوه المناجم وما حولها من قذارة الجو الريفى الجميل . ويصف لورنس الريف كرجل ريفى يحبه ويحس نحوه باحساس عميق ولا يحاول أن يتغاضى عن مواطن القبح فيه ـ الأراضى البور والأرانب الجبلية التى تلتهم المحاصيل ، والفئران التى تتوالد فى الشون والمخازن والأكواخ المهجورة المتهدمة والحيوانات والطيور التى تقع فى المصائد والفخاخ أو التى تقتل أو تفترس .

ويسرد لورنس قصته سردا ذاتيا عن طريق ضمير المفرد المتكلم ويمكننا ان نصف القصة على أنها محاولة من جانب الراوى لتصوير حياة لورنس على أنها تحقيق للحلم الذى كان يراود والدته بشأن مستقبله . فيعيش البطل مع والدته وأخته ويقوم برسم لوحات بألوان مائية ويعيش عيشة مثالية ، فالعالم الذى يعيش فيه عالم نظيف مريح يستلقى أفراده فيه على كراسى مريحة ويقرعون الأجراس للخدم ويرتدون ملابسهم الرسمية للعشاء . وبالرغم من أن لورنس يتحدث بضمير المتكلم المفرد فيها الا أننا لا نحس بوجوده الا قليلا . ويمثل « سيريل » د . هـ . لورنس فى القصة وتنشأ بينه وبين جورج ساكستون صداقة متينة تصل الى ذروتها فى المنظر الذى يستحم فيه الاثنان ؛ ويتكرر هذا المنظر فى قصص لورنس الأخرى مثل « قوس قزح » و « نساء عاشقات » ومن طريقه يحاول لورنس أن يصور لنا التوافق والانسجام الروحيين عن طريق اللمس والاحتكاك الجسدى كما فى الفصل الذى أطلق عليه « المصارعون » فى « نساء عاشقات » . ويتزوج جورج من امرأة غير متعلمة بعد أن فشل فى الزواج

من « ليتى » شقيقة « سيريل » . وتنجب « ميج » زوجة جورج له توامين وتبدأ عملية المد والجذر التى سيبلورها لورنس فيما بعد فى الظهور . فتهمل « ميج » زوجها وتولى أولادها عنايتها ويقول زوجها : « ان « ميج » لم تعد تجد فى المتعة التى تجدها فى الأطفال . » وهذه الفكرة بدورها سيكون لها صدى فى قصصه الأخرى . وعندما تبدأ فى الاهتمام به لصراحته وقوة بدنه نجد انه قد تحول الى سكير يحطم نفسه وزوجته وأولاده . والفصل الاخير فى القصة يشبه موعظة طويلة فى منع المسكرات ويبدو أن لوالدة لورنس أثرها فقد كانت تعتبر الخمر من الرذائل الكبرى وكان الزوج أحد ضحاياها ولا سيما وأن الوالد فى هذه القصة يموت من جراء الاسراف فى تعاطى المسكرات .

والقصة قصة لفنان شاب والكتاب كتاب عذرى صور فيه لورنس الحياة من حوله تصويرا حيا ولكنه لم يمارس تجاربها ممارسة فعالة ولهذا فالقصة تتكون من سلسلة من المناظر لا تربطها فكرة محورية واحدة . ومن الغريب أن الفصل الذى يعالج « الطاووس الابيض » لا يمت الى بقية القصة بصلة . وهذا الفصل يذكرنا بالقصص القصيرة التى نجدها فى القصص الطويلة التى خلفها لنا فيلدنج وديكنز وسير والتر سكوت . وتدور هذه القصة حول القسيس « انابيل » الذى تخرج فى كمبردج وتسلم عمله فى أبراشيه ولاحقته ابنة عم مدير الابراشيه ، الليدى « كرستيابل » فتزوجها ليكتشف فيما بعد أنها سيدة روحية لا تريد أن تنجب أطفالا . ويتركها هى والكنيسة فى النهاية ويعيش فى كوخ حقير مع امرأة قذرة أنجبت له قطيعا من الأطفال ويعمل كحارس لغابة سيد وأصبحت « تتسلط عليه فكرة واحدة : ان الحضارة شىء عفن مزوق ، وكان يكره أى اشارة الى الثقافة . » ويظهر الطاووس الابيض فى فناء الكنيسة الملحقة بالنزل الكبير الذى يعمل فيه « انابيل » ويحط على تمثال حجرى الملاك فوق رأس ضريح ويتبرز فوقه ثم يرفع رأسه ويصرخ بصوت عال . وهذه القصة القصيرة لها أهميتها لأن فيها جذور قصة « ميلورز » فى « عشيق الليدى تشاترلى » .

أبناء وعشاق : Sons and Lovers

لقد نشأ لورنس يهتم بالعلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الفرق الكبير بين ثقافة والده ووالدته . واذا كان لنا أن نصدق لورنس ، فقد اتجهت الأم نحو اولادها لتجد كفايتها من العطف والحب والحنان والفهم ، تلك العواطف التى لم تحصل عليها من زوجها . وهذا الرأى يعضده وجود التيارات الخفية التى يصورها لنا لورنس فى قصصه كلما ظهرت سلطة المرأة على الرجل . فلورنس حساس جدا وبطريقة فائقة لأى تسلط من جانب المرأة على الرجل وكثيرا ما تدفعه هذه الحساسية الفائقة الى الدفاع عن نفسه بطريقة هيستيرية ويتخذ الجنس لهذا شكلا رهيبا . وكان لورنس ينظر الى تسلط المرأة على الرجل ، سواء ذلك عن طريق الحب أو الحنان ، على أنه الخطيئة الأولى ضد القانون الطبيعى ، وجعله هذا الاعتقاد ينظر الى جهود المرأة فى الحصول على المساواة بالرجل وكأنها مسئولة عن كل شقاء وتعاسة نجدها فى هذ العالم . وقد كانت الحركة النسائية لتحرير المرأة على اشدها فى أيام شبابه ، وفيما بعد أخذ يرى نفسه فى صورة والده فى صراعه مع أمه . وحتى بعد زواجه من « فريدا » ، وكانت امرأة قوية حادة الطبع ، استمر لورنس يعانى من هذه الأزمة . فقد كان لحيويتها الجسدية الفائقة أثرها فى اجتذاب لورنس نحوها ، وفى الوقت ذاته أصيب جسده الهزيل المسلول بهزة عنيفة ، واضطرب العبقرى المريض ودفعه مزاجه العصابى الى أن يجد فيها بديلا لأمه وامرأة يستطيع السيطرة عليها . ولم تكن « فريدا » « أما » أو امرأة يمكن السيطرة عليها ، ولم يحصل

لورنس من هذا الزواج على راحة البال التى كان ينشدها ولو أن زواجه ، دون شك ، كان له اثره فى حثه على المضى فى عمله بطريقة مبتكرة .

ونجد فى هذه القصة تصويرا دقيقا لموقف لورنس من المرأة كأم وكعاشقة ، والقصة من النوع الذى يعالج حياة البطل منذ طفولته وتنتمى كذلك الى ذلك النوع من القصص الذى يعطى صورة للفنان فى شبابه وفى صراعه مع العالم ، وتشبه الى حد ما قصة جيمس جويس « صورة للفنان فى شبابه » . وهذان النوعان يتميزان بالتركيب الاستطرادى الذى تصبح فيه حياة البطل الرابطة الوحيدة بين أجزاء القصة المختلفة وحلقاتها . ويظهر التفكك فى قصة لورنس ولا يظهر فى قصة جويس . وفى « أبناء وعشاق » يبسط لنا لورنس حياة بطله منذ ولادته ثم نراه يمر خلال سنوات شبابه بأزمات متعددة حتى بلغ مرحلة الرجولة . ويعتبر لورنس كاتبا تقليديا حيث انه يعتمد على التسلسل الزمنى فى سرد قصته التى تتكون من ثلاث فصول فى الغالب ، وقد حاول أن يتجنب ذلك كما كتب فى خطاب له لادوارد جارنيت :

« ولقد أعدت كتابته مرة ثانية ، وقمت بتقليمه وتشكيله ، وملأت الثغرات التى كانت فيه ـ وأقول لك ان للقصة شكلا ـ شكلا : ألم اكتبها بصبر ، من عرقى ومن دمى . والقصة تتبع هذه الفكرة : امرأة لها شخصية ومهذبة تضطر الى النزول الى درجة أقل فى المجتمع ، وهى ليست راضية عن حياتها . لها عاطفة نحو زوجها ، وتنجب أطفالها عن طريق العاطفة ، ولها قدر هائل من الحيوية . وعندما يشب الأطفال فهى تختارهم كعشاق ـ أكبرهم أولا ، ثم الثانى . ويضطر الأبناء الى التجاوب مع الحياة وبادئوا أمهم حبا بحب ـ ويندفعون قدما فى هذا الطريق . وعندما يبلغون سن الرجولة يجدون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا ، لأن الأم كانت قد أصبحت أقوى قوة فى حياتهم ، وتسيطر الأم عليهم .. واذا حدث ثمة تلاق بين هؤلاء الشبان ونساء أخريات ، عانوا انقساما . ويصبح ويليام مستهترا ، وتسيطر أمه على روحه . ولكن هذا الصراع يقتله ، لأنه لا يدرى أين تكون حياته . ويكون من نصيب الابن الثانى امرأة تناضل فى سبيل روحه ـ تناضل أمه . ويحب الابن أمه ـ كل الأبناء يكرهون الأب ويغارون منه . وتستمر المعركة بين الأم والفتاة ، ويصبح الابن هو الهدف . وبالتدريج تثبت الأم قوتها ، نظرا لرابطة الدم . ويصمم الابن على ترك روحه بين يدى أمه ، ومثل أخيه الأكبر ، يسلم نفسه للعاطفة ، ويحصل على العاطفة . ويبدأ الانقسام من جديد . ولكن ، دون وعى منها ، تدرك الأم ما فى الأمر ، وتبدأ فى الاحتضار . ويترك الابن عشيقته ويسهر على أمه المحتضرة . وفى النهاية نراه عاريا من كل شىء ، يجرفه تيار الموت » .

وقد حاول لورنس أن يكتمل شكل قصته عن طريق تقسيمها الى أطوار مختلفة فى تسلسل زمنى مطول . وقد عالج لورنس سنوات عديدة من حياة « موريل » وسلط أنواره على علاقات معينة طابعها التجاذب والتنافر والمد والجذر لا التغير الطبيعى والتطور بمرور السنين ويظهر هذا التكنيك فى قصته « قوس قزح » أيضا . ففى بعض حلقات القصة نرى فى مسز موريل الشخصية الرئيسية المحورية التى تنتظم حولها باقى الشخوص ـ والثر موريل فى شبابه ثم كزوج محطم ، ثم ابنها الأكبر « ويليام » ومن بعده « بول » وأحيانا أولادها الآخرين . وفى دورة أخرى يحتل « بول » أمامية الصورة ونراه فى علاقاته بأمه وبميريام وبكلارا . وتظل الشخصيتان الرئيسيتان فى صراع حتى موت الأم بينما تحدث توافيق وتباديل بين الشخصيات الأخرى فتتقابل وتتلاقى خلال القصة كلها : مسز

موريل وميريام ، مسز موريل وكلارا ، ميريام وكلارا . وقد تعدى لورنس حدود الاتصال أو التلاق بين شخصية وأخرى وجعل لكل شخصية فكرة تتسلط عليها .

والصراع بين الأم والاب فى القصة صراع بين الثقافة والجهل ، بين الوعى العقلى والحيوية الحيوانية الغريزية ، بين الروح (العقل) وبين النفس (الجسد) . أما العلاقة بين بول ومسز بول وبين بول وميريام فتتميز بردود افعال اخرى معينة ويضمن لورنس هذه الانواع من الصراع ابعادا واسعة ، فكل فرد يحاول أن يمتع بتمام ذاتيته ويحقق امكانياته بقدر ما يستطيع ويعمل على توسيع آفاق تجربته . ولا تظهر هذه التضمينات فى القصة بوضوح لأن القصة كانت محاولة أولى ، ولم يستطع لورنس أن يتخلص من الاهتمام بتجارب معينة والاشارة الى أشياء محددة فى قصة تعتبر فى مجموعها ترجمة ذاتية . وعندما نصل الى « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » يكون عنصر الترجمة الذاتية قد اختفى الى حد ما وننتقل من جو واقعى الى تصوير مواقف عالمية ، وتصبح شخوصه تجسيدا لافكار معينة .

وتتلون القصة كلها برأى لورنس فى الحياة ويتحول لورنس فى بعض مواقفها من قصصى الى شاعر . ورسالته فيها تتمركز حول الفكرة القديمة فى الصراع بين الأم والابن وزوجة الابن وقد أعطى لورنس اهتماما خاصا لهذه الفكرة الفرودية لعقدة أوديب ويقول لورنس :

« ولكن الرجل الذى يعتبر الوسيط بين المرأة والانجاب هو عشيق تلك المرأة . واذا كانت تلك المرأة أمه ، فهو حينئذ لا يكون عشيقا لها كلية ؛ فهو يحقق لها هدفها، ولكنها لا تتقبله أبدا ، ولا تساعده على توكيد نفسه أو تجديدها ، وهكذا يفنى جسده . والابن العاشق القديم كان اوديب - ومن اوديب الجديد لدينا الملايين . واذا تزوج الابن العاشق ، فهى ليست زوجته ولكنها فراشة . وستتمزق حياته الى شطرين ، وستأمل زوجته فى يأسها فى أن يكون لها أولاد حتى يصبح لها منهم عشيق هى الأخرى فى زمانها » .

ويلخص لنا لورنس فى هذه العبارة فكرة الصراع الرئيسية فى القصة . والابن العاشق لا يستطيع أن يساعد زوجته على الاكتمال لأنه متعلق بوالدته وتظل الزوجة دون اكتمال حتى تنجب أطفالا فيتحقق لها ما تريد وهكذا الى مالا نهاية . ومن التناقض الغريب أن اندماج « بول » مع أمه فيه اكتمال لشخصيته وفى الوقت ذاته فيه تخنيث له ، فيه اتمام لنضوجه وفيه احباط له .

وعن طريق عقدة أوديب تمكن لورنس من مناقشة عديد من الأفكار ، ففى مسز موريل نرى مثالا للفردية التى تعتد بنفسها وبذكائها ، نرى امرأة بلا وجدان تجمدت عواطفها وبردت ، ويقابلها الزوج عامل المنجم ، رجل حيوى فطرى يرتبط بالأرض التى يعمل فى جوفها روحا وجسدا ، رجل مغرم بالغناء انبساطى النزعة يفتح نفسه للحيوية فى الحياة ويرقص ويشرب . ثم نراه بعد ذلك رجلا محطما معذبا يدوى من جراء روحية زوجته وبعدها عنه نفسيا وعقليا وجسديا ويؤدى دوره فى القصة ثم يختفى منها عندما تسيطر الزوجة على ابنائها . ويصف لورنس مستر موريل فى اول القصة على أنه رجل ضعيف الارادة دافىء العواطف ، وبعد ذلك يصفه عندما بدأ ينكمش تدريجيا لما فقد ثقته بنفسه وبدأ جسمه يتغضن وأخذ احساسه بوجوده يضعف . ولم يزد وزنه وبدأ يفقد قامته المستقيمة ومشيته الممتدة وأخذ جسده يتأثر بضعف كبريائه . ولا تتركه الزوجة لحاله بل حاولت أن ترفع من روحه المعنوية عن طريق التهكم والسخرية وكلما تذكرت أنها فى الماضى كانت تحب هذا الرجل يزداد حزنها ، واخيرا تدفعه الى السكر والكذب والجبن وبعد كل هذا تؤنبه لخطئه . ويصبح الزوج

غريبا ، ويتحول الى ظل رجل يظهر من باطن الارض ليختفى فى المشارب . ويقاوم الزوج ولكن رجولته تنهار فى النهاية وعندما يصبح وحيـــدا ، لا يجد من يواسيه وتخلو ذاته من القيم ولا يجد جسده الاشباع الكافى .

ويمر الابن « بول » بمرحلة مماثلة بعد وفاة والدته ويصبح مهملا منبوذا (« المنبوذ » هو عنوان آخر فصل فى القصة) ويصف لورنس الوالد المحطم بقولة : « وأعد موريل وجبته وحده ، بوحشية . واخذ يأكل ويشرب فى جلبة لا داعى لها . ولم يتكلم معه أحد . واختفت الحياة العائلية ، وانكمشت ، واطبق عليها السكون كلما دخل المنزل . ولكنه لم يعر اغترابه أية أهمية » وكان رده على هذه العزلة المفروضة عليه هو مواجهة تلطف زوجته بسوقية مبالغ فيها وخشونة فظة . ويصف لورنس الزوج احيانا بلغة قاسية ويصوره على انه قد اصبح اقرب الى الحيوان المفترس منه الى الانسان .

وهكذا تطمس هذه الشخصية ويتحقق الفصل الاول من الموقف الأوديبى ويفقد الزوج سيطرته على عائلته . وتتجه الزوجة الى أولادها بعد هذا الاحباط ، وتجد فيهم ما يعوضها عن زوجها ، الواحد تلو الآخر . وعندما تمسك بابنتها الاكبر ويليام يصبح الصراع فى الاسرة على اشـــده ، وعندما تميل الى بول تزداد حدة الصراع ويتأزم الموقف ويتعقد .

ويجد الابن الاكبر ويليام نفسه مشدودا الى « ليلى » ولكنه لا يستطيع ان يتخلص من سيطرة والدته ، ودون وعى منه يجد نفسه يحقر من شأن « ليلى » ولا يحترمها ويتعمد الاساءة اليهـــا امام والدته لكى يعطى الأم الاحســـاس بأن حبه للفتـــاة مجرد نزوة سرعان ما تزول . وتحذره الام من الزواج منها ، ويبدأ فى معاناة أزمة نفسية حادة ، فهو لا يستطيع أن يتخلى عن فتاته لانه يجد فيها متعـــة جسمانية وفى الوقت ذاته لا يستطيع ان يغضب أمه لانه كان قد تعود ، كما يقول لورنس ، « أن تغرز أفـكاره كلهـا عن طريق عقل أمه . » ويتحطم ويليـام ولا يستطيع الوصول الى الاكتمال ويموت وهو فى شبابه . وبعد موت ويليام ، يصاب « بول » بالتهاب رئوى وتمرضه الأم وعندما يشفى من مرضه تتخذه بديلا لأخيه . ويتزوج « بول » وينتهى الجزء الأول من القصة .

ويبدأ الجزء الثانى « بميريام » التى تظهر غريزة الأم فى حبها للتملك . والحب فى رأى لورنس عاطفة أساسية فى الحياة ولا غنى للانسان عنـــه ، ولكن الحب يعنى الترابط والتلاق بينما الحياة الحقيقة فى نظره لاتحقق نفســـها الا فى الفرد وحده وهكذا ينشأ الصراع بين الحياة والحب ، ويعبر عن هذه الفكرة بقوله : « ان القانون الاساسى للحياة العضوية كلها هو أن كل كائن حى يعتبر فريدا وفى عزلة تامة » وقد عبر الدوس هكسلى فى « ضرير فى غزة » عن حيرته بقوله : « لماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الاشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ » ويجيب : « لا يستطيع انسان ان يأكل من أجل انسان آخر ، ولابد لافتهام من أن يفكر ويتمتع ويقاسى ويلمس ويشم ويسمع ويذوق فى عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش فى عالم أقل انعزالا عن عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المقفلة . وبالطبع اذا كان لابد من أن يكون هناك وجود ـ وجود كما نعرفه ـ فلابد للكائنات من أن تنتظم فى عوالم مقفلة وعقول كعقولنا لابد لها أن تدرك ان الوحدة دون فوارق تصبح وكأنها لا شىء . تناقض لا مفر منه لأننا نريد أن تكون س = ١ ولكننا نجد ، فى الحقيقة ، أن ١ = صفر . » ومنطقة الصفر هذه يطلق عليها لورنس كلمة « الموت » ، ومن الصعب على شخوصه ادراكها . فالفرد لا يمكنه الوصول الى الاكتمال الا عن طريق الاحتكاك بآخرين ، وعلى وجه الخصوص ذلك الاحتـــكاك بين الرجل والمرأة ، ومـع كل فيجب على كل فرد الاحتفاظ بجوهره . والحب عند مسز موريل أو عند « ميريام » لا يعترف بجوهر الفرد الآخر ولهذا

يأتى هذا الحب بعكس ما يتوقعان ولا يساعد على الاكتمال بل يدمر ويحطم الطرف الآخر . فالحب سلاح ذو حدين اذا زاد عن الحد المعقول يسبب الموت ولهذا فلا بد من التوازن أو من عملية المد والجذر كى يتحقق جوهر الفرد .

وعندما يلتقى « بول » بميريام فهو يلقاها وهو رجل محطم فقد اتزانه وطالما هو واقع تحت تأثير امه وسيطرتها فهو لا يستطيع أن يحقق الاكتمال معها أو مع اى امرأة اخرى الا عن طريق الجسد فقط . ويحاول لورنس أن يقنعنا أن الجسد لا يعتبر طاهرا الا اذا كانت الروح طاهرة أيضا . فالجسد وحده لا يكفى لتحقيق الذات ـ ونرى ذلك فى العلاقة بين « بول » « وكلارا دوس » ـ وكذلك الالتقاء الروحى وحده لا يكفى ، أما الاثنان معا فسيجلبان للانسان السعادة ويساعدانه على النمو والازدهار .

وتعجب ميريام باحدى لوحات بول فيقول لها : « ان السبب يرجع الى أنه لا يوجد فيها ظلال بالمرة ، فهى تظهر التألق والوميض ، وكأننى قد رسمت البروتوبلازم الذى يتألق فى أوراق الأشجار وكل شىء ، ولم أرسم الشكل الجامد الذى يبدو لى بلا حياة . ان هذا الوميض هو الشىء الحقيقى التى . والشكل ما هو الا قشرة ميتـــة . ان التألق حقيقة فى داخل الاشياء . » ويحاول « بول » أن يصل الى هذا الوميض ، الى هذا البروتوبلازم أو الجوهر الحى المتألق فيما يرسمه وفى الحياة ذاتها ، فينجح فى الوصول اليه فى لوحاته ويفشل فى تحقيقه فى حياته . فهو كالزهرة التى لا تجد تربة خصبة تساعدها على النمو فقد اقتلعتها الأم لتحتفظ بها لنفسها ولهذا يثور « بول » على « ميريام » من أجل موقفها حيال الازهار وتحب الأم وميريام الازهار لا لأنها اشياء جميلة بل على انها ممتلكات . ويقول لورنس فى مقال له عن « توتنجهام » :

« ان حب الأزهار شىء محير . فمعظم النســـاء تحب الأزهار كممتلكات وأشياء للزينة . فهن لا يستطعن أن ينظرن الى زهرة ويشملكهن العجب للحظة ، ثم يذهبن لحالهن . فاذا وجدن أن زهرة قد استحوذت على اهتمامهن ، فلابد لهن فى الحال من التقاطها ، من اقتطافها . الاقتناء ! التملك ! هذا شىء جديد أضيفه الى نفسى . ان ما يطلق عليه اليوم حب الأزهار ما هـــو الا مجرد الوصول الى الامتلاك والى الأنانية : شىء عندى « أنا » ، شىء يزينني « أنا » . » ولهذا يثور بول على ميريام ويسألها فى غضب عندما يرى زهرة فى يدها : « لماذا تقبضين على الأشياء دائما وتنتزعى قلوبها منها ؟ » ويترك بول ميريام لفترة بعد أن ضاق بها واتجه الى « كلارا » فى محاولة للوصول الى الاكتمال عن طريق الجسد . وتمثل كلارا « المرأة الجديدة » فى ذلك الوقت فهى متزوجة ولكنها منفصلة عن زوجها ويجد فيها بول الأنوثة الناضجة والدفء الذى لم يجده فى « ميريام » ويقع فى غرامها لفترة ولكنه لم يستطع أن يحقق معها الاكتمال وتعود لزوجها الضعيف فى النهاية . ويجد بول نفسه « كالمنبوذ » بدون أمه وبدون ميريام كلارا ولكنه يرفض الاستسلام لليأس ونتركه فى آخر القصة وهو يواجه مستقبله الغامض .

قوس قزح : The Rainbow

يتغير أسلوب لورنس فى الكتابة بعد « ابناء وعشاق » ويظهر انسانه المثالى الذى يحقق المولد الثانى أو البعث ويخرج لنا « بيركين » فى « نساء عاشقات » وميلورز فى « عشيق الليدى تشاترلى » والمسيح فى « الرجل الذى مات » . وقد اتخـــذ لورنس العنقاء رمزا لهذا التحول الجديد كما اتخذ هكسلى الفراشة من بعـــده رمزا للروح التى تخرج متطهرة من رماد جســـدها . ويتمكن بيركين من الانسلاخ

من احباطه ويصبح شخصا جـــديدا مكتملا يواجه الحيـاة بحيوية ويسير ناحية الخلق والحياة لا ناحيـــة الموت .

وفى اواخر عام ١٩١٣ كتب لورنس لادوارد جارينت يقول انه ســـوف يرسل اليه الجزء الاول من « الشقيقتان » والتى يفضل أن يكون عنوانها « خاتم الزواج » ، وهى تختلف عن « أبناء وعشاق » فى لغتها وفى موضوعها . وكتب له فى خطاب آخر يقول « انهاحقا شيئا جديدا فى فن القصة . » وهذه القصة التى كان عنوانها « الشـــقيقتان » مرت بمرحلة تغير فيهـــا عنوانها الى « خاتم الزواج » ثم « سفينة نوح » واخيرا نشر الجزء الأول منها بعنوان « قوس قزح » ١٩١٥ والثانى « نساء عاشقات » ١٩١٦ ولكنها لم تنشر الا فى عام ١٩٢٠ . وقد حاول لورنس ان يبتكر أسلوبا جديدا يساعده فى التعبير عن فلسفته الجديدة وكان يقول : انى أمر بمرحلة انتقالية ... انى اكتب وكل شىء غامض فى نفسى ـ نار مشتعلة فى نفسى ، ولـكن ، هناك ابصال مبهمة فى باطن الأرض ، أزهار يجب أن يعتنى بها لربيع آخر . ولكننى أكتب لاعيش ويجب ان تخرج الأزهار ، واذا كانت الأزهار ضعيفة فستكون على ما يرام اذا ما خرجت فى ساعتها . » وفى « أبنـــاء وعشاق » تظهر ثلاثة انماط من الشخصيات : الاب الامى الذى يحاول اشباع ملذاته ، والأم التى تحب السيطرة على أبنائها والفتاة العاشقة التى تحاول السمو بروحها ولا تظهر هـــذه الشخوص فى « قوس قزح » أو « نساء عاشقات » . ويبدو من رسائل لورنس فى هذه الفترة انه كان يعانى أزمة حادة وانه كان فعلا يمر بمرحلة انتقالية فنحن نقرأ له فى رسائل متفرقة العبارات التالية :

ـ « لم أعد أجد السرور فى خلق مواقف حية كما فعلت فى « أبناء وعشاق » ... »

ـ « هناك شىء عميق فى داخلى يحاول أن يسلخ نفسه منى ... »

ـ « لا تحاول أن تبحث فى قصصى عن الأنا القديمة المستقرة للشخص ... »

ـ « أعتقد أن ما اكتبـــه عظيما ـ جديدا جدا ، طبقة حقيقية ، واظنها أعمق بكثير مما وصل اليه أحد فى قصصه ... »

و « قوس قزح » قصة مبتكرة جديدة فى كل شىء ، فهى تختلف عن قصصه الأخرى لانها تحاول الكشف عن اعماق بعيدة فى نفس الرجل والمرأة ولم يكن لورنس يدرى فى ذلك الوقت عن هـــذا الاحساس الجديد الذى يدفعه الى الكتابة بهذه الطريقة شيئا . والقصة تعالج رجالا ونساء يدخلون فى دورات جديدة باستمرار وتسجل تسجيلا دقيقا نموهم وتطورهم . ويصور لنا لورنس فى الصفحتين الأولى والثانيـــة من القصة هذا العـــالم الغريب تصويرا رائعا لا تخفى علينا رموزه فعلى حدود « داربى شاير » و « نوتنجهام » يعيش آل برانجوين فى مزرعة مارش :

« كانوا يحسون بتدفق العصارة فى الربيع ، وكانوا يعرفون الموجة التى لا تسكن، ولكنها تلقى بالبذور كل عام أمامها للاخصاب ، وعندما تسكن ، تترك صـــغارها على الأرض . كانوا يعرفون كيف تخالط الأرض السماء ، وكيف يجذب صدر الأرض وباطنها أشعة الشمس ، وكيف ترضع الأرض المطر فى النهار ، وكيف تصبح عارية تحت الرياح فى الخريف .. كانت حياتهم وعلاقاتهم هكذا : يشعرون بنبض الأرض وجسدها الذى كان يتخدد استعدادا لتلقى الحبوب ويصبح ناعما غضا بعد الحرث ملتصقا بأقدامهم التصاقا يشدهم كالرغبة ، ثم ترقد الأرض جامدة لا تبالى عندما تبدأ المحاصيل فى النضوج .. وامسكوا بضروع الأبقار وفاضت الأبقار بلبنها ونبضت

بالحياة فى أيدى الرجال . ونبض دم حلمات الأبقار مع نبض أيدى الرجال . واعتلوا ظهور خيولهم وقبضوا على الحياة بين أرجلهم وربطوا خيولهم فى العربات وبأيديهم على سيور اللجام سيطروا عليها وأخضعوها لارادتهم » .

أما نساء آل برانجوين فقد « كن يردن نوعا آخر من الحياة . شيئا آخر لا يكون غرزيا . كن ينظرن دائما الى الأفق المتسع ، الى خارج دائرتهن الضيقة المحدودة . »

والقصة قصة ثلاثة أجيال متعاقبة يرقبها لورنس عن كثب ويسجل تطور العلاقات المختلفة بين رجالها ونسائها . ونبدأ بتوم برانجوين الذى يقابل فى يوم من الأيام سيدة بولندية اسمها ليديا لنسكى ويشعر نحوها باحساس غريب ثم يتزوجها ، ثم نقابل ويل برانجوين وأنا واخيرا يورسولا وسكربنسكى . ويصف لورنس لنا بدقة متناهية لحظات التقارب والالتقاء والتجاذب الروحى والجسدى التى يعقبها فترات من التباعد والتنافر واللامبالاة بين الرجل الزوج والمرأة الزوجة ولهذا نجد التقابل فى الشخصيات وتتضح الفروق من تعاقب الأجيال الثلاثة ومن الافتاحية الفنية بالرموز الجنسية .

وتبدأ القصة بطريقة تقليدية الى حد ما تذكرنا بأسلوب جورج اليوت وتوماس هاردى ولو أنها تزخر بأسلوب لورنس وطريقته فى ابراز حياة الفرد الذاتية وارتباطه بالقوى الحيوية فى الطبيعة من حوله . ويختلف لورنس عن جورج اليوت وتوماس هاردى فى قدرته على الانتقال السريع من الوصف الطبيعى الى الايحاء الرمزى . ويحرص لورنس فى تأريخه لهذه الأجيال الثلاثة على ابراز عامل الوراثة ولهذا نجد أحيانا تكرارا مملا فرضته عليه فكرة القصة الرئيسية وهى تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة من جيل لآخر ، ومحاولته الوصول الى التوازن أو الاستقطاب . وكان من الضرورى أن يصور لنا لورنس أن الطريق الى الاكتمال لا يأتى الا عن طريق التجربة والخطأ وفى النهاية سيتمكن الفرد من أن « يجتذب الحياة الى نفسه من القوى الحيوية الهائلة المبعثرة فى العالم . » ولهذا فالفقرات الأولى تعتبر الجنين الذى ينمو فيصبح « قوس قزح » .

ويجد توم برانجوين التكامل الى حد ما فى زواجه من ليديا لينسكى ولا سيما وانها من عالم غريب مجهول . وتظل الزوجة « غريبة » فى هذا العالم ويظل الزوج هو الآخر « غريبا » فى عالمه المظلم حتى يجرفه تيار شديد من مياه الأمطار ويموت غرقا . ويظهر ويل برانجوين على مسرح الحوادث ويقع فى غرام « أنا » ويتزوجها . ويبدأ الصراع بينهما بعد شهر العسل القصير وتبدأ شخصية ويل برانجوين فى التكشف لنا ، فهو ليس بالرجل الريفى ولكنه فنان مغرم بالفن المعمارى فى الكنائس القوطية ، ولا يشده الزجاج الملون أو النحت على الجدران والأعمدة فحسب فى الكنيسة بل روح الغموض والظلام الذى تحتويه الكنيسة داخلها . فالدين بالنسبة له ليس مجرد طقوس أو قوانين خلقية بل هو تجربة عاطفية واحساس بالأزل والمطلق ولهذا يؤمن بالمعجزات ويحب الرموز الدينية . وينظر ويل برانجوين الى الكنيسة بنفس النظرة التى كان آل برانجوين ينظرون بها الى الأرض والطبيعة من حولهم ، ويصف لورنس الكنيسة بأسلوب مماثل لأسلوبه فى الفقرات الأولى من القصة :

« بين الشرق والغرب ، بين الفجر وغروب الشمس ، كانت الكنيسة ترقد كبذرة فى سكون ، غامضة قبل الانبات ، يكتنفها السكوت بعد الموت . وظلت الكاتدرائية صامتة ، بذرة ضخمة ستكون زهرتها حياة متألقة لا يمكن تخيلها ، ففيها الحياة والموت ، وأولها وآخرها دائرة السكون » .

ولكن الزوجة لا تحترم افتنان زوجها بالكنيسة ، فالمذبح قاحل ، والكاتدرائية مكان محدود

يجب على الانسان الهروب منه والانطلاق فى العالم الرحب الواسع تحت السماء الزرقاء ، وأقواس الكنيسة لا تماثل فى جمالها قوس قزح . فأقواس الكنيسة تنطلق عموديا الى أعلى وتمثل التسامى والروحية ، اما قوس قزح فينطلق الى أعلى ثم يعود الى الأرض مرة ثانية . ويرمز قوس قزح الى تحقيق كل الأشياء التى يعمل على احباطها عالم لورنس ويشير الى الحياة الذاتية فيما وراء الوعى . اما قوس الكاتدرائية فيوحى بالاطمئنان والأمان ولا يعتبر طريقا كاملا فى الحياة . ولا يمكن لشخص مثل ويل برانجوين أو سكربنسكى الذى يقدس الواجب أو جيرالد فى « نساء عاشقات » أن يصل الى الاحساس بأهمية قوس قزح . فيجد ويل الراحة فى قلب الكنيسة الذى يطلق عليه لورنس « الرحم » ولكنه يفشل فى تحقيق هذا التوازن بين الروح والجسد ، هذا التناسق بين العقل والشعور . كان يعتقد أن الكنسة هى « المطلق » فى عالم يزخر بالمتناقضات ، ولكنه فقد ايمانه بالمطلق وكان صوت زوجته « هو صوت الحية فى جنة عدن . » ويعود مع زوجته الى المنزل وهو يفكر :

« لقد كان يعتقد أن الكاتدرائية هى المطلق . أما الآن فقد شاهدها وهى تقبع تحت السماء ، ولا زال العالم الحقيقى الغامض المظلم فى داخلها ، ولكنه عالم من داخل عالم آخر ، استعراض جانبى ، وكانت قبل ذلك بالنسبة له عالما وسط الفوضى : حقيقة ، نظاما ، مطلقا ، داخل فوضى بلا معنى .. لقد كان هناك حياة خارج الكنيسة . كانت هناك أشياء كثيرة لم تحتويها الكنيسة . وأخذ يفكر فى الله ، وفى قبة السماء الزرقاء فى ذلك اليوم . كان هذا شيئا عظيما وطلقا . وأخذ يفكر فى حطام العقيدة الاغريقية ، وبدا له أن المعبد لا يصبح معبدا كاملا الا اذا تحطم واختلط بالريح والسماء والأعشاب » .

ويعود الزوج فى النهاية الى هوايته وهى النقش على الخشب وتولى الزوجة المخصبة أولادها التعة عنايتها .

ونصل الى الجيل الثالث : يورسولا وعشيقها سكربنسكى . وترث الفتاة عن والدها اهتمامه بالكنيسة والدين بطريقة مختلفة . فبينما كان والدها يهتم بالمطلق المجرد فى الكنيسة أخذت هى تهتم بالدين عن طريق حبها للمسيح وتحاول التوفيق بين الجسد والروح . وتقع فى غرام سكربنسكى ويتركها لفترة ويعود اليها بعد ست سنوات ويتفقان على الزواج ولكنها تكتشف أنها تحبه جسديا ولا تحبه من أعماق نفسها ويفترقان . وفى نهاية القصة ترى يورسولا قوس قزح على أنه رمز للحياة المكتملة الحيوية التى تجمع بين العقل والجسد ويسمو بهما الى وراء حدود العلاقات الحسية والروحية المتعارف عليها .

ان احساسات أبطال لورنس وبطلاته فى قصصه احساس غامض حيوى غرزى متغير كالزئبق ، فهم يحبون ويكرهون دون ادراك واع منهم . ويتم عندما تسيطر عليهم « غريزة الدم » وعندما يحدث هذا التلاقى يظهر « شعاع من الفهم » يصل بين الطرفين . والحياة الحقة عنده هى هذا الفهم المتصل والعيش فى العالم الغرزى باستمرار . ولكن الجسم الانسانى لا يحتمل الانفعال بهذه الطريقة . ان عبقرية لورنس تظهر دائما فى مقدرته على وصف حالات معينة من الادراك المباشر لهذه القوى الخفية التى تحركنا وفى مواقف معينة فى مناظر متفرقة فى قصصه . ويظهر جمال أسلوبه عندما يكون واقعا تحت تأثير هذه التجارب الحسية والنفسية الفائقة وعندئذ يتحرر الشاعر من المبشر بفلسفة جديدة ويكشف لنا لورنس عن عبقريته من خلال الضباب الكثيف الذى يكتنف رسالته . ان ما حققه لورنس رائع جدا ولكن ليس من العسير أن يخفى علينا أنه قد اختل فيما حققه لورنس شىء ما . ان العقل ليس بالضرورة عقبة فى سبيل الاحساس والاكتمال .